

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الربيع بن يونس

لمؤلفه محمد أحمد براني

المدرس بالإبراهيمية

جوهرة ثمينة فريدة، هي عقد أصابه أناس في بعض بلاد العجم لبعض ملوكهم، أو هي نخلة كانت لكسرى مصنوعة من الذهب عثا كيلها من لواط وجوهر وياقوت أحمر وأخضر - حمل الجوهرة من أصابها إلى مصعب ابن الزبير، وإلى العراق، فاشتراها ثم سأل من حوله: إلى من أدفعها؟ وكان طبعها أن يقترحوا عليه أن يهديها إلى أهله ونسائه، ولكنه لا يرضى بذلك ويؤثر أن يقدمها هدية إلى رجل أولاه جيلا، وله عليه يد. ذلك الرجل هو عبدالله بن أبي فروة، جد الربيع بن يونس، وكانت تلك الهدية سبب غناه وغنى عقبه من بعده. واليد التي اعترف بها مصعب لعبدالله بن أبي فروة هي أنهما نشأا كغصنين في نبتة واحدة، وكانا خليلين لا يكادان يفترقان، فإذا اكتسى أحدهما كسوة، اكتسى الآخر مثلها، فاكتمى عبدالله يوما كسوة ولم يجد مصعب ما يكتسى به مثلها، لأنه كان قليل المال، فذكر ذلك لعبدالله لا يبه، فكساء مثل حالته، وظل مصعب يذكر تلك اليد حتى كبر، وكانت له مشاركة في السياسة والتدبير، ثم ولي العراق، فلما أصاب تلك الجوهرة قدمها إلى صديقه وكتبه عبدالله بن أبي فروة، فسر بها كثيرا، فقال له مصعب: والله لا تأتا بالحلة يوم كسوت فيها - أشد سرورا منك بهذا العقد الآن.

إذن هي حلة بدرهمات يشتريها أبو فروة لصديق ابنه، تكون سببا في جلب خير كثير ومال وغنى يرثه أبناؤه من بعده، إلا أن أبا فروة صاحب اليد ووالد عبدالله الذي أهديت إليه الجوهرة هو أيضا والد محمد جد الربيع بن يونس، ولكن الغنى كان في عبدالله، وعقبه، ولم ينل منه محمد شيئا، فلم يصب أبناؤه منه شيئا.

وأما يونس بن محمد، فإنه كان «شاريا شاطرا بالمدينة، فعلق أمة لقوم بالمدينة، فوقع عليها، فجاءت بالربيع واستعبد، ولم يكن ليونس مال، فيبتاعه، فابتاعه زياد بن عبدالله الحارثي خال أبي العباس، وأهداه إليه، فخدمه وخف على قلبه، ثم خدم أبا جعفر بعده فخص به».

إذن: الربيع بن أمة، ولد عبدا، ولم يستطع أبوه يونس أن يشتريه من مولى الأمة، فاشتراه زياد كما يشتري سلعة من السوق ثم قدمه هدية إلى السفاح فيخدمه، ثم يخدم المنصور من بعده حتى يغلب عليه لطفه فيه، ورقة طبع، وحدة ذكاء، وحسن تأت لما يعرض له من الأمور. فشتان بين مبدئه ومنتهاه.

وكان المنصور يحب الربيع، ويقربه إليه، ويخصه بمودته، ويستشيره في كثير من أموره، وأحسن القيام بالحجابة له والعرض عليه وأخلص هو للمنصور، وظهر إخلاصه في مناصحته له واختصاصه به، وظل على ذلك عنده حتى غضب على أبي أيوب المورياني ونسكه، ثم فكر فيمن يلي أمر الوزارة له، فلم يجد غير الربيع، فأمره أن يجلس في بيته حتى يأتيه رسوله، فاضطربت نفس الربيع، وغلبت عليه الوسوس، واغتم كثيرا لأنه قد يصيبه من وراء ذلك شر، وهذا شأن القريب من صاحب السلطان — إن

اطمان يوما اضطرب أياما . ولما صار إليه الرسول قدم إليه حلة الوزارة ، وأمره أن يلبسها ، ويركب ويذهب إلى دار الخليفة ، فلما ذهب إليها وجد الفراءش طرح له مرفقة تحت البساط تقصيرا به عن منزلة المهدي وعيسى بن علي ، لأنه كان يطرح لها مرفقتين ظاهرتين ؛ وما كاد يمثل بين يدي الخليفة حتى ولاه وزارته والعرض عليه ، وولى ابنه الفضل الحجابة .

أما الربيع فإنه منذ تولى الوزارة والعرض ، حسن طبعه ، ودمت خلقه ، ولان ملبسه ، ورق مظهره ، وطاب مخبره ، وعرف المنصور ذلك فيه ، فكان إذا أراد أن يعطف على إنسان ، ويؤليه جميلا ، ويقدم إليه يدا - أحاله على الربيع لميله إلى ذلك في تصرفه .

وكان ذلك المذهب في سياسة الدولة وتدبير أمورها ؛ يحجب الناس فيه ، ويجعلهم يؤثرون الخير به على الشر به ، ويسل سخائم صدورهم ، ويمسح حفاظها ، ويصير له في نفوسهم مكانا عليا . وكان يكثر من الشفاعة للمذنبين فيعفو المنصور عنهم ، فلا يكفرون بنعمة العفو ، ولكنها قللت في أعناقهم لا ينزعها حقد قديم ، أو سخيمة موروثه ، أو ثأر مبيت ؛ فكان بذلك يريح نفسه ويريح مولاة وصاحب نعمته : الخليفة المنصور ألا ترى أن بعض أهل فلسطين وثب على عاملها ، واستغوى بعض الناس ، فكادوا يشعلون نار الفتنة ، وعاثوا في البلاد فسادا فلما علم المنصور بذلك كتب إلى عامله « دملك مرتين إن لم توجه رأس تلك العصابة إلينا » فصمد العامل لهم ، وضرب على أيديهم لأن في ذلك حقن دمه ، وضمان بقاءه في عمله ، ثم قبض على رأس العصابة المفتونة ، ووجهه إلى المنصور ، فلما مثل بين يديه قال له : « أنت المتوثب على عامل أمير المؤمنين ؟ » لا تثرين من حلمي أكثر مما يبيح علي

عظّمك ، فقال له الرجل وكان شيخا بلغت به السن أقصاها :

أتروض عرسك بعد ما هربت ومن العناء رياضة الحرم ؟

وكان الرجل لضعفه وشيخوخته ، ينشد البيت بصوت متهدج خافت
ضئيل متقطع النبرات ، يكثر من الترجيع والتأتأة وقتل الحروف ، فلم يتبين
المنصور ما قال ، وكان الربيع شاهداً المجلس ، فالتفت إليه المنصور ، وسأله
عما يقول الرجل ، فقال : هو يقول يا أمير المؤمنين :

العبد عبدكم والمال مالكم فهل عذابك عنى اليوم مصروف ؟

فإنه غلبت عليه خيريته ، وأنشد بيتا غير الذى أنشده الرجل ، فيه اعتذار
واستعطاف ، ألان قلب المنصور ، وخفف سوره ، وأزال غضبه ، فعفا عن
الرجل ، وخلي سبيله ، وأمر الربيع أن يحتفظ به ، ويحسن إليه .
وظل الربيع وزيرا للمنصور حتى مات المنصور سنة ٨١٥٩ هـ ، فآخذ
البيعة للهدى .

فلما تولى المهدي الخلافة ، ولى أبا عبيد الله وزارته ، وكان أبو عبيد الله
قبل ذلك صديقا حميما للربيع ، وكان الربيع يحسن إلى أبي عبيد الله ويرفع
موضعه عند المنصور ويناصحه ويكاتبه بما يحتاج إليه ، وينبهه إلى ما يضلحه ،
ويكف عنه من يريد التشنيع عليه ، والنيل منه ، والقدح في محله ، أو ذكره
بخلاف الجليل .

فعل ذلك الربيع أيام كان أبو عبيد الله غائبا مع المهدي بالرى ، والمهدي
ولى العهد . فلما استوزر المهدي أبا عبيد الله ، تنكروا هذا للربيع ، ونسى معرفته
أو تناساه ، فخر ذلك في نفس الربيع ، وآله ، وأقضى مضجعه ، حتى لقد خدته
في ذلك ابنه الفضل ، فعض على ناجذيه ، وهز كفيه ، وغلا دمه ، ولعلت

عيناه ؛ وبرقت ثنياه ، وتناؤه وزفر ، وغار الدم من وجهه ، وقال قولة المغيظ المحقق : « والله الذى لا إله إلا هو لا خلقن جاهى ولا نفقن مالى حتى أبلغ مكروه أبى عبيد الله » . ثم جعل يضرب كفا على كف ، ويتقلب ظهرا لبطن ، ويضرب يميناً وشمالاً فلا يجد مساعاً . ولكنه فكر وأطال التفكير ، حتى اهتدى إلى رجل اسمه القشيري ، كان أبو عبيد الله نال منه ، وأساء به ، ولم يعرف مكانه فحجبه . أراد أن يستعين بذلك الرجل فى النكاية بأبى عبيد الله والإيقاع به ، فاستحضره ، وذكر له ما كان من أبى عبيد الله معه ، وما ركب به ، ثم سأل له حيلة فيه إن كانت له حيلة ، ولكن القشيري كان أعلم الناس بأبى عبيد الله ، وكان على ما يبدو من قوله حازم الرأى ، صادق المشورة ، لم يندفع وراء هواه ، ولم يفتن باستشارة الربيع إياه ، فقال له متحدثاً عن أبى عبيد الله : « ليس بجاهل فى صناعته ، وإنه لأحذق الناس ، وما هو بظنين فيما يتقلده ، لأنه أعف الناس حتى لو كانت بنات المهدي فى حجره لكان لهن مرضعا ، وليس بمتهم بانحراف عن هذه الدولة ، لأنه ليس يؤتى من ذلك وليس بمتهم فى دينه ، لأن عقده عقد وثيق ، ولكن هذا كله يجتمع لك فى ابنه » .

أعجب الربيع رأى القشيري ، فلم يتعرض أولاً لأبى عبيد الله نفسه ، لأنه فى حصن منيع من أخلاقه ، وأدبه ودينه ، وزهده وصلاحه وإخلاصه ، للخلافة إلا أنه حاول أن يأخذه من ناحية ابنه ، ولكن عليه أن يحسن الحيلة . وإن رجلاً كالربيع استطاع بحسن حيلته ، وحسن تأنيه للأمور ، أن يفسد ما بين المنصور وبين وزيره أبى أيوب ، واستطاع أن يغير المنصور على وزيره ، حتى نكبه بالحبس ثم بالقتل = لا يعز عليه أن يفسد ما بين

أبي عبيد الله والمهدي . إلا أن الفرق كبير بين أبي أيوب وأبي عبيد الله ، فإن الأول كان سيئ السيرة . ولم يكن مخلصا للخلافة ، فهو يرتشى ويسرق ، ويدس ويشي ويزور . وتحيط به حاشية من رجال سوء الذين لا يؤتمنون على سر ولا علق ، ولذلك قدم إلى الربيع الرمح الذي وجأه به عند المنصور أو هو الذي صنع ذلك السيف وشحذه ، وسلبه إلى الربيع فقدمه هذا إلى المنصور حيث طعن به صاحبه — فجل ذلك الربيع من غير غناء كثير ، أو التجاء إلى مداراة أو مداورة ، والتماس حيل ، وسفور تارة ، وتقنع مرة أخرى ، إلى غير ذلك من الأمور التي يلجأ إليها من يقدم على عظيم من الأمور . وأى شئ أعظم من محاولة تغيير سياسة دولة ، وتوجيهها وجهة جديدة — أما أبو عبيد الله ، فإنه غير متهم في دينه أو تصرفه أو بإخلاصه للخلافة أو كفايته ، ولكن المتهم في دينه والمرمى بالزندقة : ابنه ، فلتسكن نكبتك من هذا الطريق لا غير ، لأن سلوك أى طريق آخر غير هذا لا يصل به الربيع إلى ما يريد من الانتقام من أبي عبيد الله ، فإذا يصنع ؟

كثير المتزندقون في أيام المهدي ، فجد في طلبهم ، وقسا عليهم ، وغلظ في أمرهم ، فلا يعرف فيهم لبنا ولا هراة ، وكان عبد الله بن أبي عبيد الله زنديقا قبض عليه في مكة ، وحمل إلى المهدي ، فسأله : أزنديق أنت ؟ قال : نعم ، وهنا أتيت الفرصة للربيع ، فلصق بالمهدي ، وتودد إليه ، واستغل غلظته على الزنادقة ، ولا سيما الذين يعترفون ، منهم بالزندقة ، فإن هؤلاء ليس لهم عقوبة إلا تمكين السيوف من رقابهم ، ثم حزها ، وابن أبي عبيد الله قد اعترف بأنه زنديق ؛ فجزأوه القتل ، ولا حرج على المهدي في ذلك . بدأ

الربيع يحفر في قبر أبي عبيد الله ، فاقترح على المهدي أن يأمره يقتل ابنه بيده ، فسمع له المهدي ، وأمر أبا عبيد الله أن يضرب عنق ابنه الزنديق .
وهنا يؤمك كل الألم أن يقف أبو عبيد الله هذا الموقف ، أيطيع خليفته ويذبح ابنه ، وحنان الأبوة يحول بينه وبين ذلك . فهو واقف بين عاملين قوين يتجاذبانه دفعا ومنعا ، فإخلاصه للخلافة يدفعه ، وحنانه يمنعه . ويقف الرجل بين هذا وذاك ، مرتعد الفريضة ، جزع القلب ، هالع الفؤاد ، دامع العين .

ولكن الرجل غلب عليه إخلاصه لخليفته ، وتمكنه من دينه ، وكان زندقة ابنه هونت عليه أن يفعل ما أمر ، فتحنى بابنه ، وقبض على السيف بيديه ، ولما هم أن يضرب عنقه ، خائنه قوته ، فزادت زعدته ، وجد دمه ، ولم يقو على رفع السيف ، فكيف به يضربه ؟ !! . كائن به وقد اغرورقت عيناه بالدموع ، ودارتا حوله ، فوجدهم يرقبونه من كشب ، فرفع وجهه إلى السماء ، وقال : يارباه - قو قلبي ، وارحم ضعفي ، وألهب في نار الإيمان وأشعل مصابيح اليقين ، فلما ذبحته ، وإما رحمتي ورحته . يارباه - أنت أرحم بابني مني ، وأشفق على من نفسي ، فبهى لي من أمرى رشدا . يارباه - إنى أستلهمك الصبر على البلاء ، وأسألك النجاة من كيد الإعداء .

موقف يذيب القلوب ، ويصدع الأكباد ، ويشعل الشيب في الروس !! ، موقف تضطرب له الأنفاس ، وتقشعر الأبدان ، ويشيب من هوله الولدان !! موقف ألان قلب العباس بن محمد ، فقال : يا أمير المؤمنين - شيخ كبير وله حرمة ، وبكفك غيره ما أبدته منه ، وسمعوا الشيخ يقول لابنه في صوت تقطعه الزفرات : ما هذا أدبتك ، ولقد علمتكم كتاب الله عز وجل .

أنفذ المهدي الشيخ واستدعاه ، ثم وكل آخر بابنه ليقتله ، وكان الابن قد أثر فيه موقف أبيه ، وتأنببه له ، أو أنه رأى السيف مصلنا على رأسه فنأدى بالتوبة ، فلم يسمع له المهدي ، وكان قد سمع من غيره ، وتغافل عنه ، فلما قيل له في ذلك ، أقبل عليه ، وقال له : « والله ما الله أردت بذلك انزعوا عمامته ، وجأوا في عنقه ، فما زال يدفع ويوجأ في عنقه حتى أخرج » . ثم مضى إليه من وكل به ، فأطار عنقه ثم دفن ولم يستقبل به القبلة .

نال الربيع بذلك من أبي عبيد الله ، ولكنه لم يشف نفسه ، ولم يبرد صدره ، ولم تسكن هائجته ، فهو لا يتم له ذلك إلا إذا رأى أبا عبيد الله مكتوباً في عمله وفي نفسه ، ولذلك أعمل فكره ، فهداه شيطانه إلى أن يوعز إلى بعض خدم المهدي أنه إذا دخل أبو عبيد الله على الخليفة قبض على سيفه ومشى بجانبه ، محافظة على حياة الخليفة منه ، فنفذ الخادم ما أراد الربيع ، فهذا أبو عبيد الله قادم إلى الخليفة ، وهذا هو الخادم يصحبه ويمشى إلى جانبه ، ويقبض على سيفه ، فأنكر أمير المؤمنين ذلك على الخادم ، ولكن الخادم يحفظ ما لقنه الربيع من الجواب ، فيقول : « يا أمير المؤمنين قتلت ابنه بالأمس ، فكيف آمنه عليك أن يخلو بك ، ومعه سيفه اليوم ؟ » فرأى المهدي في كلام الخادم كلام عاقل ، ووجد الكلام في قلبه موضعاً كن فيه ، فأوحش المهدي من أبي عبيد الله ، ولم يخسر الربيع شيئاً غير ثلاثة آلاف دينار قدمها أجراً للخادم .

وكان من حظ الربيع أن يعقوب بن داود اتصل بالمهدي في هذه الأثناء ورفع إليه نصائحه ، وتقرب إليه ، فتناقل أبو عبيد الله ، وتقلل وأدل ، ولا سيما أن ما فعله به في حادث ابنه جعله يستوحش منه . واتصل الربيع يعقوب

ابن داود، وتمالاً الرجلان على أبي عبيد الله فكانت مكانة يعقوب تزيده،
ومكانة أبي عبيد الله تنقص حتى تولى يعقوب الوزارة مكانه سنة ١٦٣ هـ .
وقصره على ديوان الرسائل ثم عزله وصرفه عن ديوان الرسائل أيضاً سنة ١٦٨ هـ
وقلده الربيع ويجوز أن يكون ذلك بتدبيره هو ويعقوب .

ولما مات المهدي أخذ الربيع البيعة للهادي ببغداد قبل وروده إليها، فلما
دخل الهادي ببغداد قلده الربيع وزارته وتدير أموره، ثم لم يلبث أن صرفه
عنها وخصه بديوان الأئمة، ولم يزل مقرا عليه إلى أن مات سنة ١٦٩ هـ
وسنة إذ ذاك ٥٨ سنة وصلى عليه الرشيد وهو ولي عهد .
وكان له مع الخلفاء مسامرات، ومع الأدباء مناظرات، ولذوى الحاجات
شفاعات — غصت بأخبارها كلها بطون كتب الأدب .

محمد أحمد برائق